الأوضاع الصحية في الحجاز من خلال كتابات الرحالة الروس في

القرن (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)

" مشاهدات مختارة"

Health conditions in the Hijaz through the writings of Russian travelers during

١٤-١٣AH / 19-20 AD

"Selected Views"

د/مترك بن تركي بن درع السبيعي

أستاذ مساعد بقسم التاريخ-جامعة الطائف

ملخص البحث

يتناول البحث الأوضاع الصحية التي كانت سائدة في المدن الحجازية، وتحديداً مكة المكرمة والمدينة المنورة من خلال ما دوَّنهُ الرحالة الروس الذين زاروا الحجاز أثناء موسم الحج من مشاهدات، وملاحظات، وذلك خلال القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الهجريين ،التاسع عشر، والعشرين الميلاديين، حيث وفد اولئك الرحالة الروس لأداء فريضة الحج فسجلوا مشاهداتهم التي غدت من بين أهم المصادر التاريخية التي تتحدث عن الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والصحية للحجاز في تلك الفترة، ولعل ظهور الرحالة الروس في بداية القرن الرابع عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، واهتمامهم بمنطقة الخليج العربي، وبلاد الحجاز بشكل خاص كان في جوهره بسبب التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية وبين روسيا؛ وبخاصة الإمبراطورية البريطانية من جهة، وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى التي باتت تغُط في سبات عميق ليس منه فواق، ومما يسترعي الاهتمام كذلك هو ما خططت له المانيا القيصرية بأنشاء سكك حديد بغداد لربط البحر المتوسط بالخليج العربي مما استدعى غضب كل من الامبراطورية البريطانية، وروسيا القيصرية في آن واحد.

ولأهمية ما دوَّنه الحجاج الروس؛ فقد خصصت هذه الدراسة لأحد الأوضاع التي كانت دائماً مثار خوف، وهلع لدى الكثيرين من الحجاج القادمين للحجاز؛ ألا وهي "الأوضاع الصحية" بكل ما يتعلق بها؛ من المرض إلى الموت في أحيان كثيرة، وكيف كان كفاح الناس لأجلها، وما قدمته حكومات الحجاز من جهود، أو تقصير حيال ذلك.

واشتملت الدراسة على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين؛ خصص الأول منها لكتابات الرحالة الروس عن الحجاز، والأوضاع الصحية التي كانت سائدة آنذاك، بينما خصص الثاني عن كتابات الرحالة الأوروبيين والعرب الذين زاروا الحجاز لأداء فريضة الحج أو غيره من الأسباب، وذيل الموضوع بخاتمة لأهم النتائج، وقائمة بأهم مصادر ومراجع البحث.

Summary

The research deals with health conditions that were prevalent in the cities of Hijaz, specifically at Makkah and Madinah through what was written by observations and observations made by Russian travelers who visited Hijaz during the Hajj season during the thirteenth and fourteenth centuries / nineteenth and twentieth centuries.

The delegation of those pilgrims traveling to perform the Hajj pilgrimage recorded their observations, which have become among the most important historical sources that talk about the political, social, economic, religious, and health conditions of the Hejaz in that period.

It is well known that appearance of Russian travelers at the beginning of the fourteenth century AH/nineteenth century AD, and their interest in the Arab Gulf region, and the countries of Hijaz in particular, was in its essence due to colonial rivalry between European countries and Russia, especially the British Empire on the one hand, and between the Ottoman Empire, which is now covered in a deep hibernation that is not supernatural, and what attracts attention as well is what it planned Caesarean Germany by constructing the Baghdad railways to connect the Mediterranean to the Persian Gulf, which required the wrath of both the British Empire and Tsarist Russia at the same time.

And because of the importance of what the Russian pilgrims wrote, this study is devoted to one of the situations that have always been a source of fear, and panic

among many pilgrims arriving for the Hijaz: the "health conditions" with everything related to them, from disease to death in many cases, and how people struggle for them , And the efforts made by the Hijaz governments, or their failure to do so.

The study included an introduction, preface, and two topics; the first was devoted to the writings of Russian travelers on Hijaz, and health conditions that prevailed at the time, while the second was devoted to the writings of European and Arab travelers who visited Hijaz to perform the Hajj pilgrimage or other reasons, and the topic is tailored to a conclusion of the most important results, And a list of the most important research sources and references.

Key Words **كلمات مفتاحية**

١- الحج	Hajj
٢- الرحالة الروس	Russian Travelers
٣- الأوبئة والأمراض	Epidemics and diseases
٤- الحجاج الروس	Russian pilgrims
٥- الحجر الصحي	Quarantine

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن المشاهدات المسجلة للرحالة الروس وغيرهم من الرحالة الاوربيين تُعد من بين المصادر التاريخية المهمة التي تعكس صورة واضحة عن الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والصحية لمجتمع الحجاز في أوائل القرنين التاسع عشر والعشرين، خاصة وإننا لا نملك مصادر معاصرة كثيرة تتحدث عن مثل تلك الأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة خصوصاً ما يتعلق بموسم الحج وما يستتبعه من إجراءات سياسية واجتماعية واقتصادية تتحمل عبئها الدول صاحبة الرعايا المسلمين في اوروبا ([1]).

كانت البقاع المقدسة في منطقة الحجاز محط تقدير وتعظيم من جميع المسلمين والجاليات الإسلامية في أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري، حيث كان موسم الحج يجذب اهتمام الحكام في روسيا القيصرية وغيرها من بقاع أوروبا من أجل الحد من النفوذ الروحي العثماني والذي كان العدو السياسي التقليدي لتلك الدول، لذا حرص الحكام الروس على الاهتمام بتلك الشعيرة الدينية وتقديم كل الخدمات المرتبطة بها للرعايا الروس في جميع انحاء المناطق الخاضعة لحكمهم منذ خروجهم من روسيا وحتى وصولهم إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة ([2]).

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر نفوذا واسعا لروسيا القيصرية في الشرق الأوسط وسُعرت نيران الصراع المحموم بين الدول الاوروبية بعضها البعض طمعاً في السيطرة السياسية والعسكرية على مناطق آسيا الوسطى والشرق الاوسط خاصة بعد تراخي الدولة العثمانية ودخولها في مرحله من الضعف والوهن والتراخي، حيث تم ضم اقليم تركستان المسلم إلى روسيا وهنا أصبح تعداد المسلمين من الرعايا الروس يبلغ وقتئذ ما يربو من ١٦ مليون نسمة ([3]).

---

[1]- جابر: أبو جابر، الرحالة الروس في البلدان العربية، مجلة جامعة عدن، العدد ٤، صنعاء، ٢٠٠٠م، ص٢٣-٦٠.

[2]-زيدان: ناصر، دور روسيا في الشرق الأوسط وشمال افريقيا، الدار العربية للعلوم-بيروت، ٢٠١٣م، ص٢٦-٦٥.

[3]- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩م، الدار العربية للموسوعات-بيروت، ٢٠٠٨، ص١٤-١٦.

وقد بلغ الصراع السياسي أشده في نهاية القرن التاسع عشر بين الدول الاستعمارية على اقتسام مناطق النفوذ في منطقة الشرق الاوسط من أجل السيطرة الروحية على الحج وتحفيز الشعوب حيث رأت تلك الدول في شعيرة الحج فرصة مواتية لمناكفة روسيا القيصرية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى، ومن أمثلة ذلك السياسة الأمانية القيصرية التي اعتمدت استراتيجيتها في ذلك الوقت على العداء للروس والدولة العثمانية في آن واحد.

وقد رأت بريطانيا العظمى أن حقوقها في الخليج العربي ازلية ومطلقة بوصفها قوة الاستعمار في المنطقة فعارضت التوجهات الروسية نحو الخليج العربي بشكل عام ومنطقة الحجاز بشكل خاص خاصة بعد ما اشيع في العالم مما عُرف تاريخياً بوصية "**بطرس الأكبر**" (١٦٨٩-١٧٢٥) والتي نسبت إليه وجاء فيها أن تجارة الهند هي تجارة العالم ومن يستولي عليها يستولي على اقتصاد بلاد فارس ويصبح سيد اوروبا والعالم ([1]).

وهنا خشيت بريطانيا العُظمى من الأطماع الروسية في مناطق نفوذها التقليدية في الهند والخليج العربي فعقدت عدة اتفاقات سياسية مع شيوخ المنطقة خاصة مع عمان والبحرين لتأمين سيطرتها على تلك المناطق وبالتالي تأمين مستعمراتها في الهند وشمال افريقيا بل اعتبرت أن أية تدخلات في شؤون المستعمرات البريطانية في الهند أو في الخليج العربي وشمال افريقيا هو خطر كبير لابد أن يستوجب معه تحرك سريع وتدخل عسكري قوي وفوري ومباشر ضد روسيا القيصرية ([2]).

وكانت روسيا القيصرية قد اتخذت خطوات ملموسة لصالح المسلمين من الروس للتصدي الفعلي لتلك الموجة الموجهة ضد سمعتها الدولية وتعاملها مع رعاياها من المسلمين حين سمحت بطبع القرآن الكريم في روسيا والغت القيود الدينية وافتتحت أول مطبعة إسلامية بها في عام١٢١٦ه/ ١٨٠٢م، وقد أدت تلك الخطوات الملموسة إلى تعاطف المسلمين في كافة انحاء العالم الاسلامي مع

---

[1]- الزيدي: عباس ياسر، القوى الاستعمارية والخليج العربي ١٦٠٠-١٩١٤م، مجلة المؤرخ العربي-اتحاد المؤرخين العرب-بغداد، ١٩٨٠م، العدد ١٢، ص٤٣٢.

٢ - الفالح: صبري الحمدي، موقف بريطانيا من النشاط الروسي في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر، مجلة كلية التربية الأساسية-بغداد، ٢٠٠٧م، العدد ٥٢، ص١٣٩-١٥٤.

الروس وأثمرت بشكل كبير في اخفاق الدعوات الألمانية في بدايات الحرب العالمية الأولى حيث ناشدت المانيا العالم الاسلامي في آسيا الوسطى وقتئذ بالجهاد ضد الروس ([1]).

وقد شكلت تلك الرحلة الدينية فرصة كبيرة للحجاج الروس في تسجيل بعض التفاصيل المرتبطة بمشاهداتهم ووصفهم لكافة مناحي الحياة في المدن الحجازية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث جاء في بعض تلك التقارير والمراسلات وصفاً شافياً لجغرافية الحجاز وانشطته الاقتصادية وسكانه وأوضاعه السياسية والاجتماعية والصحية خاصة في موسم الحج، فجاءت تلك التقارير بتفاصيل مهمة جدا تحدثت فيما تحدثت عن الأوضاع الصحية في موسم الحج ومدى تقاعس الدولة العثمانية في الاهتمام بالأوضاع الصحية والحد من الأمراض والأوبئة التي انتشرت في الأماكن المقدسة خاصة مرضي الطاعون والكوليرا ([2]).

ومن خلال تلك المراسلات والتقارير التي سجلها الرحالة الروس في زياراتهم للمدن الحجازية المختلفة في مكة المكرمة والمدينة المنورة سوف تتناول الدراسة ما تم تسجيله من معلومات وصفت الأوضاع الصحية التي كانت سائدة في تلك الفترة خاصة مع الأعداد الكبيرة للحجاج آنذاك وانتشار الأوبئة والأمراض المختلفة خصوصاً بعد أداء منسك الحج وذبح الاضاحي في منطقة منى وما حولها من مناطق مكة المختلفة.

ولعله من الأهمية بمكان الرجوع لكتابات الرحالة الآخرين من غير الروس سواء من المستشرقين الأوربيين أو من الرحالة العرب الذين وفدوا على الحجاز لأداء فريضة الحج أو بتكليفات من حكومات بلادهم لأغراض مختلفة، لما في ذلك من أهمية علمية لعقد بعض المقارنان بين مشاهدات

١- لمزيد من الآراء والتحليلات التاريخية حول الدور الروسي في الخليج العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ انظر: (الفالح: صبري الحمدي، الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، الدار العربية للعلوم ناشرون-بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص٢١-٤٤/ الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٧-٢١).

٢ - الجاسم: نجاة عبد القادر، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر الميلادي، مطبعة ذات السلال- الكويت، ١٩٨٧م، ص٤٣/ وقد كانت الخلافات بين السلاطين العثمانيين والأشراف في الحجاز على أشدها في تلك الفترة مما أدي إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية والصحية والسياسية ايضاً. لمزيد من التفاصيل؛ انظر: Al-Amr: Saleh Mohamed; Higaz Under Ottoman Rule 1869-1914, Ottoman Vali, the Sharif of Mecca and the Grouth of British Influence, Riyad University Publications, 1974, 60-75.

الطرفين للوقوف على الحقائق التاريخية واستخلاصها وتمحيصها بشكل دقيق، فإما تحقيقها تحقيقاً ايجابياً أو تحقيقاً سلبياً.

وتتطرق الدراسة لمشاهدات عن الحالة الصحية في الحجاز منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى تأسيس الدولة السعودية وما شهدته من نهضة صحية كبرى وصولاً إلى الدولة السعودية الثالثة.

التمهيد: الرحالة الروس في الحجاز:

دخل الإسلام إلى الأرض التي سيطرت عليها روسيا القيصرية فيما بعد وعُرفت بأرض أذربيجان في التاريخ منذ العام الثاني والعشرين الهجري حين تم فتح المدينة الروسية المعروفة باسم "**دربند**" ([1]) وكان قائد الفتح "**سراقة بن عمر**" في خلافة سيدنا "**عمر بن الخطاب**" -رضي الله عنه- وأرضاه ثم دخل المسلمون في عهد سيدنا "**عثمان بن عفان**" -رضي الله عنه- وأرضاه مناطق بلاد الأرمن وبلاد اللان ومنطقة تفليس وأصبحت فيما بعد إجزاء من أملاك الامبراطورية الروسية حيث احتلتها روسيا بعد ذلك التاريخ وبالتدريج ثم تطلعت لاحتلال المناطق الإسلامية الأخرى التي دخلت فيما بعد ضمن نفوذ الامبراطورية الروسية التوسعية حتى انهيار الاتحاد السوفيتي السابق(١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢-١٤١١ه/١٩٩١م) ([2]).

ومنذ أوائل القرن الأول الهجري وما تلاه بدأ المسلمون في تلك البقاع في التوافد على الحجاز لأداء فريضة الحج إلا أن أعداد الحجاج وقتئذ كانت قليلة جداً وكانت في اغلب الأحوال تقتصر على بعض الأغنياء والعلماء وكبار التجار من المسلمين وممن لديهم المقدرة المالية أو الطاقة الجسدية لتحمل مشاق الرحلة الطويلة إلى أرض الحجاز، وأستمر الحال على ذلك حتى بداية القرن الثالث

---

[1] -مدينة "دربند" هي احدى مدن جمهورية داغستان الروسية وتقع على الساحل الغربي لبحر قزوين وقد أشار الطبري في تاريخه إلى فتح تلك المدينة في العام ٢٢هـ وعُرفت حينذاك باسم مدينة الباب، انظر: (الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري "اريخ الرسل والملوك"، تحقيق: محمد أبو الفضل، مكتبة دار المعارف- القاهرة، ط٢، ١٣٨٧ه/١٩٦٧م، ج٤، ص١٥٥-١٦٣).

[2] -شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الاسلامي-بيروت، ط٤ ،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٨، ص٣٦٣/ يصل تعداد المسلمين اليوم في روسيا إلى ما يزيد عن ثلاث وعشرون مليون نسمة حيث يشكل المسلمون في روسيا نحو ١٦% من إجمالي عدد السكان. انظر: (بورشيفكايا: روسيا في الشرق الأوسط، الآثار-الآمال، دراسة صادرة عن معهد واشنطن، مراجعة وترجمة مركز إدراك للدراسات والاستشارات، ٢٠١٦م، ص١٦).

عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حينما شرعت روسيا القيصرية في إصدار اول التشريعات الروسية المنظمة لأداء فريضة الحج للمسلمين من الرعايا الروس ([1]).

حفلت بداية القرن التاسع عشر بأحداث تاريخية كبرى كان على رأسها الضعف والتحلل المتزايد الذي مرت به الإمبراطورية العثمانية وظهور الصحوات العربية الناهضة التي عزمت النية واتخذت القرار بالتخلص من سيطرة الاستعمار وقررت امتطاء صهوة الجياد من أجل التحرر من القيود الاستعمارية العثمانية والأوروبية معاً، وهنا شعرت الدول الاستعمارية بضرورة استغلال الفرص المواتية من أجل السيطرة والتحكم في مناطق الشرق الاوسط بشكل خاص ومنطقة شمال جزيرة العرب بشكل عام حيث أهتم الروس بإرسال القناصل والرحالة إلى منطقة الحجاز ضمن الخطط السياسية لتأمين مناطق النفوذ في الأماكن المقدسة بالنسبة للمسلمين من رعايا روسيا ([2]).

وهنا سارعت تلك الدول الاستعمارية للدفاع عن أطماعها ومصالحها الاستعمارية ورسمت لسياستها نهجين مختلفين ظاهرياً إلا أن نتيجتهم في أرض الواقع كانت واحدة وتنصب دوماً باتخاذ كل ما من شأنه الحفاظ على مكاسبها الاستعمارية دون تفريط ،وقد كان الأول منها عن طريق القوة العسكرية الغاشمة والاجتياحات الاستعمارية الواسعة مثل بريطانيا العظمى التي كانت من أوائل الدول الأوروبية وأكثرها استعماراً في منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا، وكان النهج الثاني نهجاً ثقافياً عن طريق نشر الوعي الديني والقومي والعرقي للشعوب الخاضعة للاستعمار واستنهاضها وحثها على طرد المستعمر وكانت روسيا القيصرية تنتهج هذا النهج الثاني تارة، والنهج الأول تارة اخري بحسب مصالحها الخاصة، فقد احتلت روسيا القيصرية مناطق واسعة من أرض الدولة العثمانية ومحيطها فاقتطعت تركستان وداغستان وقازان وكازخستان وغيرها من المناطق الاخرى ذات القوميات الاسلامية ودخل الملايين من المسلمين ضمن رعايا روسيا القيصرية ([3]).

---

[1] -كانت تلك الأنظمة ثمرة من ثمرات الثورة البشكيرية التي اندلعت ضد السياسات الروسية الظالمة ضد المسلمين من رعايا روسيا، وقاد هذه الثورة "عبد الله عليبف" الشهير باسم باتيريشيا في العام ١٧٥٥-١٧٥٦م. انظر: (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المرجع السابق، ص١٧-٢١).

[2] -الحمدي: صبري فالح، اخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة (١٨٧٩-١٩٠٧)، مجلة كلية الآداب، العدد ١٠٦، الجامعة المستنصرية-بغداد، ٢٠١٣م، ص٣١٧-٣٣٨).

[3] - شاكر: محمود، المرجع السابق، ج٨، ص١٥١-١٥٤/ الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٢٢-٢٥.

وليس من شك في أن روسيا القيصرية قد رأت في بريطانيا والمانيا أعداء كبار ومنافسين لها على مائدة الاستعمار الكبيرة حيث واجهت المانيا وبريطانيا –رغم عدائهم البين–النفوذ الروسي المتغلغل في الشرق الأقصى والأوسط بكل السبل مما جعل روسيا تخطط في استراتيجية سياسية مفادها الحفاظ على رعاياها من المسلمين من "**التأثيرات الأوروبية المُغرضة**" بأن نظمت رحلات الحج وكفلت الحريات الدينية للمسلمين وعمدت إلى بناء المساجد الإسلامية وكان أولها بالطبع المسجد الجامع في سان بطرسبرج الذي شيد في بدايات القرن العشرين ([1]).

ولم تكتف روسيا بذلك بل أرسلت مجموعة من القناصل والحجاج الروس من المسلمين في رحلة الحج وكان بعضهم من الضباط في الجيش الروسي مثل العقيد "**عبد العزيز دولتشين**" الذي قام بأداء فريضة الحج عام ١٨٩٨م وعمد في رحلته على كتابة تقارير استخباراتية بكافة التفاصيل التي شاهدها في رحلته الطويلة وجاءت مشاهداته تلك معبرة إلى حد كبير عن طبيعة الحياة في مدن الحجاز بمختلف جوانبها مقارنة بما كتبه الكثير ممن زاروا مدن الحجاز من الرحالة العرب وغيرهم وكذلك القنصل الروسي "**شاكر زيان إشاييف**" والذي زار الحجاز في عام ١٣١٣هـ وسجل مشاهدته حول المشاعر المقدسة وتطرق إلى الحديث عن شريف مكة والقضاء وبعض اعمال الحجاج اثناء الحج([2]).

ويأتي في مقدمة الحجاج الروس الذين أدوا فريضة الحج ايضاً الحاج "**ملا محمد علي جقلي**" الذي زار البقاع المقدسة في عام ١٢٩٠هـ وسجل الكثير من المشاهدات أثناء رحلته مرورا بإسطنبول العثمانية وحتى وصل إلى ميناء الاسكندرية ومنه إلى ميناء جدة ثم وصل إلى مكة المكرمة حيث وصف المدينة وطرقها العديدة والمشاعر المقدسة فيها ومسالكها المختلفة في تقريره وصفاً دقيقاً فجاء كتابه الذي عكف على تسجيله ليكون دليل في الحج لكل روسي مسلم ينوي أداء تلك الفريضة.

---

[1]- عبد المؤمن: بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع- بيروت، ١٤١٢هـ، ط١، ج٥، ص١٠٢٩.

[2]- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٧-٢١/ الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٧٤.

وكان الرحالة الروسي "**شهاب الدين المرجاني**" من بين أهم الرحالة الحجاج الذين زاروا الحجاز حيث سجل مشاهداته حول الاراضي المقدسة منذ خروجه من قازان وحتى وصوله إلى مكة المكرمة وخص جزءأ كبيرا منها حول الأعلام والأسماء التي لها فوائد علمية كبيرة ([1]).

وكان من بين أهم الرحالة الروس الرحالة والجغرافي "**بي ستنين**" والذي زار الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ووصف مشاهداته عنها ومن ضمن ما سجل الفقرة التالية: **(توجد المستشفى على أرض الأوقاف في المدينة وتمول من تبرعات السلطان العثماني عبد المجيد ابن السلطان محمود (١٨٦١-١٨٣٩) ويوجد بها طبيب واحد مع صيدلي ويتكون المستشفى من بيت ذي ثلاثة طوابق وبه ثلاثون برجاً)** ([2]).

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي قام الرحالة الروسي الحاج "**سليم عزي سلطانوف**" برحلته إلى الديار المقدسة في الحجاز عام ١٣١٠ه/ ١٨٩٣م وقد وصف في رحلته تلك كل ما شاهده في المدن الحجازية حيث سجل في تقريره أوضاع المدينة المنورة وطرقها وبيوتها وشوارعهما واسواقها المختلفة ([3]).

ولعل من بين أهم الرحلات الروسية هي رحلة الطبيب في الجيش الروسي" **محمد بن إلياس تولاف**" الذي سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عام ١٣١٧ه/١٨٩٩م حيث كُلف من قبل الإمبراطور الروسي "**نيقولا الثاني**" (١٩١٧-١٨٩٤م) بالذهاب إلى بلاد الحجاز لمكافحة مرض الطاعون وجميع الأمراض الوبائية التي كان يتعرض لها الحجاج الروس اثناء أدائهم فريضة الحج وكذلك الطبيب الروسي "**ألكسندر إليسييف**"(١٨٨١-١٨٩٠م) الذي زار الحجاز وكافة بقاع الشرق ([4]).

وتُعد تلك الرحلة من أهم الرحلات التي شملت تكليفاً نظامياً من الإمبراطورية الروسية ذاتها وذلك للاهتمام الكبير بمكافحة الأمراض الوبائية في منطقة الحجاز بشكل خاص، وربما جاء ذلك بعد

---

[1]- المرجاني: شهاب الدين، مستفاد الاخبار في احوال قازان وبلغار، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، قازان، ١٨٨٥م، ج٢، ص٤٣.

[2]- ب. م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ترجمة معروف خزنة دار-بغداد، ١٩٨١م، ص٢٣/ الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٧٩-٨٣.

[3]-الحمدي: صبري فالح، اخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة، المرجع السابق، ص٣٢١/ الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٧٤.

[4]- جابر: أبو جابر، الرحالة الروس في البلدان العربية، المرجع السابق، ص٢٣-٦٠.

انتشار الطاعون والأمراض الجلدية المُعدية في الحجاز وإدراك روسيا مدى تقاعس الدولة العثمانية في الاهتمام بالجوانب الصحية والوقائية الضرورية، ولكننا لا نعلم على وجه اليقين هل ذلك التكليف الذي تلقاه هذا الطبيب الروسي جاء ليكون للحكومة الروسية دور في مكافحة ذلك المرض أم جاء لمناكفة الدولة العثمانية وإظهار ضعفها وتقيرها في إدارة شؤون الحرمين الشريفين أم أن ذلك الأمر قد كان يقتصر فقط على الاهتمام بالرعايا الروس المسلمين ممن جاءوا لأداء فريضة الحج إلى البقاع المقدسة في ذلك العام ([1]).

وبالإضافة إلى هؤلاء الحجاج الروس من المسلمين فقد قامت الامبراطورية الروسية ايضاً بإرسال عدد لا بأس به من القناصل ورجالات الدولة والعلماء والباحثين إلى الأراضي الحجازية ليقدموا تقارير وافية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الصراع السياسي المحموم الذي كان محتدماً بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر حتي تحول في نهاية المطاف إلى حروب طاحنة في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وصولاً إلى الربع الأول من القرن العشرين حينما سقطت الامبراطوريتان بعد الحرب العالمية الأولى(١٩١٨-١٩١٤م) ([2]).

وكان من بين هؤلاء عدد كبير من الروس لعل من همهم "**بابير**" و " **كير**" وهم من الباحثين الروس في أوائل القرن التاسع عشر وكذا الموظف في القنصلية الروسية في جدة المسمى "**إيشاييف**" وتتحدث الوثائق الروسية عن الرحالة الروسي" **إدوارد نولدة**" الذي ولد في عام ١٨٤٩م في منطقة لاتفيا وتُعد تلك الرحلة التي قام بها "**نولدة**" من بين أوائل الرحلات السياسية الخالصة التي ارسلتها روسيا القيصرية إلى مناطق المياه الدافئة في القرن التاسع عشر بدوافع سياسية بحته، ولعل من بين الرحالة الروس الذين زاروا الأماكن المقدسة وسجلوا مشاهداتهم عنها هو الرحالة القنصل الروسي "**نيكولسكي**" الذي زار مكة والمدينة في مطلع القرن العشرين وسجل مدونات عن عدد الحجاج والذين أدوا فريضة الحج في عام ١٣٢١-١٣٢٢هـ/١٩٠٤-١٩٠٥م حيث ذكر في تقريره معلومات تاريخية مهمة وغزيرة عن أحوال الحجاج الاقتصادية والاجتماعية وطبائعهم وأعدادهم المختلفة ومن بين أهم

[1] -الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المرجع السابق، ص١٤٢.

[2] - جورياتشكين: جينادي، شيه الجزيرة العربية كما رآها الروس من ١٨٠٠م إلى١٩٥٠م- بعثه علمية لنيقولا بوجوبا فلينسكسي إلى الخليج العربي في سنه ١٩٠٢م، مجلة الوثيقة، مركز عيسى الثقافي، مركز الوثائق التاريخية، مج ١٦، العدد ٣٢، ١٩٩٧م، ص٨٣-١٠٥.

ما ذكر في مشاهداته التاريخية تلك هو أن الحجاج الاندونيسيين هم من أغنى الحجاج بينما كان الحجاج الهنود هم من بين أفقرهم ([1]).

المبحث الأول: مشاهدات الرحالة الروس للأوضاع الصحية في الحجاز:

رسم الرحالة الروس الذين زاروا ارض الحجاز خلال موسم الحج الاكبر لوحة معبرة صادقة عن الأحوال الصحية التي كانت سائدة أثناء وجودهم لأداء مناسك الحج وما كان يعتري الحجاج من أمراض تتعلق بالحالة الصحية للحجاج والأمراض المعدية التي كانت تنتشر في موسم الحج من جهة أو تلك التي تحدث نتيجة مباشرة لذبح الهدي عقب الفراغ من أداء النُسك صبيحة يوم العيد، وعدم التقيد بالالتزامات الصحية المتعلقة بالنظافة ومكافحة الأمراض والأوبئة من قبل الدولة العثمانية وقد سجل بعض الرحالة الروس بشكل دقيق في مشاهداتهم التاريخية الكثير من تلك الأوضاع الصحية في الحجاز.

وبالرجوع إلى كتابات الرحالة العرب والمستشرقين ومكاتباتهم عن ذلك فإننا نجد أن مشاهدات الرحالة الروس وما سجلوه في تقاريرهم عن الحالة الصحية للحجاج في مدن الحجاز لا تختلف كثيراً عما دونه هؤلاء إلا في بعض التفاصيل الدقيقة مثل عدد حالات المرضى الذين قضوا وتم لحدهم وكذا الاستعدادات التي كانت تتم من أجل دفن لحوم الهدي بعد عملية الذبح وذلك في أماكن مخصصة مسبقاً لذلك الأمر.

وقد سجل العقيد الروسي "**دولتشين**" في تقريره السري أن البدو كانوا يتداوون بطرق تقليدية لديهم ورثوها كابرا عن كابر منذ القدم وهي أشبه بالطرق المعروفة اليوم بالطب البديل حيث قال: **(وعند البدو حكماؤهم وأطباؤهم العرافون. وهم يلجأون إليهم في حال المرض. وأوسع الوسائل انتشارا الفصد ، والمحاجم ، والكي بالحديد المحمى. وبعد الولادة على الفور ، تعمد القابلة إلى شق ثلاثة شقوق بالسكين على صدغي الطفل وظهره وغير ذلك من أجزاء الجسم لتحاشي الأمراض المقبلة؛ وآثار هذه الشقوق تبقى طوال العمر كله ؛ وفي جميع الأمراض تقريبا، يلجأ العرب إلى**

[1] – الأنصاري: عبد الرحمن الطيب، الرحالة الروس في تاريخ الجزيرة العربية وآثارها: دراسة تقويمية، أدوماتو، العدد ١١، ٢٠٠٥م، ص٥٣-٦٢/ جابر: أبو جابر، الرحالة الروس في البلدان العربية، المرجع السابق، ص٢٣-٦٠.

فصد الدم أو يستعملون المحاجم لاستخراج الدم ؛وهم يعتقدون أن هذا يلخص الإنسان من الدوخان والضعف الناجمين عن الحرارة العالية) ([1]).

ويشير هنا الرحاله العقيد "**دولتشين**" إلى أن أهل الحجاز كانوا يتداوون فيما بينهم بطرق تقليديه موروثه مثل الحجامة التي يقوم بها أشخاص عارفون بها وممارسون لها من قديم في أنحاء الحجاز ويُطلق عليهم تسمية الحَجّام، وطبقاً لتأكيده فقد كانت تلك الممارسات الطبية من الموروثات القديمة جداً والتي ترجع بأصولها التاريخية إلى عصر النبوة فقد ثبت عن الترمزي في الشمائل عن أنس قال قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **(إن أمثل ما تداويتم به الحجامة)** ([2]).

وبذلك فقد أخذ أهل الحجاز بالحجامة للتداوي منذ عصر النبوة واستمروا في ممارستها لمرضاهم للعلاج والوقاية في آن واحد حتى مطلع القرن التاسع عشر وحينما قدم مُحدِّثنا إلى الديار المقدسة في الحجاز شاهد تلك الممارسات ودونها بوصفها ثبت تاريخي، ولعل ذلك يشير إلى أمرين مهمين أولهما أن أهل الحجاز حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري كانوا مايزالوا يتداوون بطرق بدائية عفى عليها الزمن، وثانيهما أن الدولة العثمانية صاحبة الحق السياسيى والاستعماري للحجاز لم تكن تهتم بالأحوال الصحية بالمدن المقدسة عقب فترات الضُعف والتحلل السياسيى والاقتصادي الذي حل بها مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي ولو أن ذلك لم يُستشف بوضوح من خلال مدونة العقيد في هذا الجانب حيث لم يُشر اليه عند الحديث عن الحجامة بشكل خاص ([3]).

وقال أيضاً في معرض وصفه للأمراض السارية الخطيرة التي كانت تطرأ في مواسم اشتداد الرياح والعواصف الصحراوية في الحجاز في فصل الشتاء حيث ينشط مرض السأم الذي ينتاب بعض الافراد فيجعله منطوياً مكتئباً لايزول إلا بما اشار اليه "**دولتشين**" في تقريره من ممارسات محلية مجربه سابقاً ربما كان لها خصوصية موروثة في أرض الحجاز من قديم الزمان حيث ذكر التالي : **(وعند البدو أساليب أصيلة جدّا لمعالجة عواقب السأم ؛ فالمريض يطعمونه السمنة ، ويدثّرونه بشدة وكثافة ، وطوال نحو ساعتين لا يدعونه يشرب؛ وفي حالات أشد إرهاقا ، يحفرون**

---

[1] –الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٤٢.

[2] -الأمام أبي عيسى محمد الترمذي: مختصر الشمائل المحمدية، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف/ المكتبة الإسلامية–الأردن، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٨٨.

[3] – لم يتحدث العقيد دولتشين على أن تلك الممارسة كانت من عصر النبوة ربما لعدم معرفته بالأمر أو انكاراً عليهم لممارسة تلك العملية بوصفها ممارسات قديمة إلا أن الحجامة ما تزال تمارس في بعض الاقطار العربية والاسلامية إلى اليوم. انظر: (الفيتوري: عبد القادر، الحجامة، نشر إلكترونياً، ٢٠٠٤م).

حفرة بقامة الإنسان ، ويشعلون فيها موقدا ثم يجعلون الموقد يبرد نوعا ما ،ويضعون فيها المريض ويطمرونه تاركين رأسه فقط طليقا ، ويبقونه في هذه الحال أطول مدة ممكنة، ثم يسحبونه ويدثّرونه ويدهنون جسده بالسمنة، ولا يدعونه يشرب طوال نحو ثلاث ساعات) ([1]).

ويشير التقرير الذي سجله العقيد "**دولتشين**" أيضاً أن أهل المدن الحجازية لم يعرفوا التطبيب فيما يتعلق بالأمراض العقلية مثل السأم الذي هو تشخيص لمرض الاكتئاب والانطواء فلجاءوا إلى مثل هذه الممارسات التقليدية الموروثة للإستشفاء ولا يعني ذلك عدم أخذ أهل الحجاز بالتداوي بالطب والعقاير الطبية أو افتقارهم إلى العلاجات الحديثة وقتئذ حيث أشار هو ذاته في سجلاته إلى ذلك في معرض مشاهدته لمعالم مكة المكرمة حين ذكر ما نصه:**(وكان في مكه صيدليتان: أحدهما حكومية وأخرى خاصة، وفيها مستشفى)**([2]).

ولعل أبرز ما سجله من مشاهداته في المدينة المنوره هو ما يتعلق بالنظافة العامة وأن الحالة الصحية فيها كانت افضل من مكة المكرمة، وقد علل ذلك بقوله: **(كانت الظروف الصحية في المدينة المنورة افضل مما في مكة، بفضل توفر بعض المرافق العامة، والأهم بفضل عدم تجمع الحجاج في آن واحد بأعداد كبيرة)** ([3]).

وقد أشار "**دولتشين**" ايضاً في تقريره إلى أن بيوت المدينة تكانت توزع بشكل متناسب مع الشوارع التى كانت مرصوفة بالبلاط وكانت أفضل من شوارع مكة حيث يتم تنظيفها مرة واحدة في اليومن وقد علل دولتشين سبب نظافة المدينة المنورة في التالي: **(أما السبب الرئيسي لكون شوارع المدينة المنورة أنظف ، هو أن المدينة ذاتها لا تجيز دخول الجمال وسائر الحيوانات ، فتتوقف القوافل العابرة خارج المدينة أو في ساحة بمناخة ؛ وجميع الحمير والأحصنة التي تخص السكان يزربونها هي أيضا في هذه الضاحية)** ([4]).

---

[1]- الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٤٣.

[2]-تشير الوثائق العثمانية أن مكة المكرمة كان بها "خستكانة"، والتي تعني مستشفى طبي قدم للحجاج الرعاية الصحية المطلوبة اثناء ادائهم شعائر الحج وكانت تعمل تلك المستشفى بعد انتهاء الموسم على سكان مكة المكرمة من أهل الحجاز (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢٠٦).

[3] -الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢١٠.

[4] -الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢١١.

وقد أشار ايضاً في تقريره إلى أن المسلخ في المدينة المنورة كان يقع خارج سور المدينة بعكس مكة المكرمة حيث كانت الذبائح تتعاظم في موسم الحج بطول منى وعرضها مما شكل وضعاً صحياً خطيراً على الحجاج وأهل مكة جميعاً، ولعل الإشارة هنا إلى وقوع المسلخ خارج المدينة المنورة وكذلك مناخة الأبل والدواب هو ما جعل المدينة المنورة أكثر أماناً وتحصيناً من انتشار الأمراض والأوبئة في موسم الحج إبان قيام محدثنا بزيارة البقاع المقدسة([1]).

وبالرغم من ذلك كله فإن أوضاع مياه الشرب في المدينة المنورة كانت خطيرة وخطيرة جدا وفق ما أشار إليه" **دولتشين**" نفسه حيث أوضح أن مرض الملاريا قد ظهر بشكل كبير وانتشر بين الحجاج وسكان المدينة أثناء موسم الحج بسبب تلوث مياه الآبار بالمدينة المنورة حيث قال: **(ولربما بسبب الفرق الكبير بين حرارة الصيف وحرارة الشتاء ، أو بسبب وفرة وقرب المياه الجوفية المتواجدة في كل مكان على عمق ساجينين أو ثلاثة ، أو بسبب إنشاء الآبار في البيوت بالذات ، تتخذ الملاريا في المدينة المنورة شكلا خطيرا جدّا ، فاتكة بكثيرين من المرضى. وعدا ذلك ، توجد ، وأن أندر مما في مكة ، أمراض مختلفة لأعضاء جهاز الهضم. ونسبة الوفيات ، وبخاصة بين السكان الدخلاء ، كبيرة جدّا ؛ ويموت على الأخص عدد كبير من الأولاد. وعند التتر المقيمين هنا ، كما يقولون ، لا يعيش سوى عدد تافه من المواليد الجدد. كذلك نسبة الوفيات كبيرة بين العساكر)**([2]).

وقد أشار الرحاله "**دولتشين**" أيضاً في تقريره أنه لاتوجد صيدلية في المدينة المنوره وأن المرضى كانوا يتلقون علاجهم في المستشفى الحكومي التركي الوحيد بالمدينة والذي بني من ثلاثة طوابق وكان يوجد به طبيب واحد وصيدلي واحد ([3]).

وقد سجل الحاج "**دولتشين**" في تقريره أيضاً إشارات إلى الحالة الجوية وظروف الطقس وعوامل المناخ ودرجات الحرارة المرتفعة في فصل الصيف حيث زار أرض الحجاز في خلال موسم الحج والتي كان لها أثر سلبي كبير في ظهور بعض الأمراض في المدن الحجازية بمكة والمدينة فقد قام بزيارته في مطلع شهر يوليو وحينها فقد سجل أن درجة الحرارة كانت تقترب من ٤٤درجة مما جعل الحجاج يعانون أشد المعاناة من ضربات الشمس وانتشار الأمراض المصاحبة لها، وكذا هبوب رياح

---

[1]-الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢١٢.

٢-الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢١٢-٢١٣.

٣-للمزيد؛ انظر: (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢٢٦).

السموم التي كانت مصاحبة لارتفاع درجات الحرارة مما ادي إلى تلوث الهواء بروائح كريهة من المخلفات الأدمية وبقايا الذبائح التي تحللت وأنتشرت في شتى بقاع المدينة وأشار إلى أن نسبة الوفيات كانت تزيد عندما تشتد الرياح الحارة التي وصفها بالسموم والتي تزامنت مع موسم أداء نُسك الحج([1]).

وفي معرض مشاهدته عن مشعر منى فقد ذكر ما نصه التالي: **(وهذا الذبح يجري في جميع الأيام الثلاثة من إقامة الحجاج في منى ، الأمر الذي يشكل خطرا رهيباً يهدد بنشوء بؤرة للاوبئة نظرا للمناخ الحار ولغياب الشروط الصحية.في اليوم التالي –اليوم الحادي عشر من ذي الحجة–، طفت في منى وفي مخيم الحجاج فلاحظت أن الشارع الرئيسي في منى بقي غير قذر جدّا ، ولكن حين تنحيت جانبا ، بين الجبال والمباني ، ذهلت من حال هذه المحلة الرهيب. كانت التربة كلها مكسوة بالعظام مع بقايا اللحم)**([2]).

ويلاحظ في حديث العقيد"**دولتشين**" هنا أنه يتحدث عن قذارة الشوارع في مشعر منى وعدم الاهتمام بنظافتها وذلك جراء عظام الذبائح خلال منذ اليوم الاول للعيد وحتى نهاية أيام التشريق، وأظهر تخوفه من حدوث أوبئة بسبب انتشار عظام الحيوانات وبقاياها المنتشرة في كل ساحات وشوارع مشعر منى خاصة مع ارتفاع درجات الحرارة وتحلل تلك البقايا الحيوانية مما ينذر بكارثة بيئية محققة.

ويبدوا أن ما اشار اليه الرحالة "**دولتشين**" في تقريره فيه الكثير من الصحة والخوف من تكرار ما حدث في موسم الحج عام ١٨٧٧–١٨٧٨م قبل قدومه إلى أرض الحجاز حيث انتشر حينها وباء الكوليرا في كلاً من مكة المكرمة والمدينة المنورة وقت أداء فريضة الحج وقد مات في هذا الوباء مايزيد عن ثلاثين حاجا مما جعل السلطة العثمانية تفكر في إنشاء حجر صحي في البحر الأحمر

١–إن ما ذكره العقيد دولتشين من تفاصيل كثيرة حول ما قد يحدث احياناً في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية نظراً لطبيعتها الصحراوية القاحلة واشتداد درجات الحرارة مع الرياح فتحمل معها الهواء الملوث الذي يؤدي إلى انتشار الروائح الكريهة الضارة على صحة الانسان. للمزيد؛ انظر: (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٣٧–١٣٨)، وأشار كذلك الرحالة البريطاني الشهير "بيرتون" إلى رياح السموم تلك، والتي تهب في شهر يوليو وهو من شهور الصيف القاسية في الحجاز. للمزيد؛ انظر: (الشريف: محمد بن حسن، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة، مج٢، دار الاندلس الخضراء–جدة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٥٦٥).

٢–الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢٦٦.

خاصة عند باب المندب لحجاج منطقة الهند حيث أشارت التقارير في تلك الأثناء أن مناطق مستعمرات التاج البريطاني في الهند كانت مركز هذا الوباء موطنه ([1]).

وربما ألمح "**دولتشين**" في مشاهداته هنا إلى تدني الحالة الصحية خاصة مع تلوث مياه الشرب في الحجاز وعدم الأهتمام بها مع كثرة أعداد الحجاج واختلاط المياه مع بقايا الذبائح مما أنذر بكوارث صحية خاصة مع سوء الأوضاع الاقتصادية في الحجاز وفقر الكثير من الحجاج وقلة وعيهم بالاشتراطات الصحية المعمول بها لتفادي الإصابة بالأمراض الوبائية؛ وهناك من يفسر تلك المشاهدات بوصفها إدعاءات ومبالغات روسية ربما تتقاطع مع مخططات بريطانية لاستغلال تلك الاحداث كزريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، الأمر الذي جعل "**السلطان عبد الحميد**" يقوم بإرسال الطبيب شاكر القيساري لمرافقة الحجاج عام ١٣٠٦هـ/١٨٩٠م لكي يحافظ على الحالة الصحية ويحول دون حدوث أمراض وأوبئة بين الحجاج([2]).

واستطرد "**دولتشين**" في وصفه عن عمليات الذبح للهدي في مشعر منى قائلاً: **(بعد أن يستقر الحجاج بنحو أو آخر ، يمضون إلى الحفر المعدة لذبح المواشي المذكورة أعلاه ، ويشترون هناك الخرفان ، ويذبحونها على طرف حفرة ، ويتركونها هناك ؛ ولكن إذا كان الخروف المذبوح مدهنا إلى هذا الحد أو ذاك ، فيتوافد الحجاج المعدمون ، ويطلبون التصدق عليهم بالذبيحة ، ويقصون منها أفضل القطع لكي يعيشوا لأنفسهم ، كما علمت فيما بعد ، احتياطيا من اللحم المقدد. وحوالي الظهر ، يدفعون جميع الماشي المذبوحة مع جلودها إلى الحفر ويطمرونها بشريحة رقيقة من التراب. وفي المساء تتكرر هذه العملية بالنسبة للأضاحي الجديدة. وجميع الأعمال قرب الحفر يقوم بها الجنود)**([3]).

ولعل ذلك الوصف فيه ما فيه من الإشارات إلى بعض من الممارسات غير الصحية والتي كانت سبباً مباشراً في ظهور الأمراض والأوبئة الموسمية والتي تتزامن مع موسم الحج من كل عام؛ وربما كانت حروب الدولة العثمانية مع روسيا سبباً مباشراً في تردي الأوضاع الاقتصادية التى

---

[1]- صابان: سهيل، الأمراض والوفيات في الحجاز في موسم الحج (١٢٩٨-١٣٢٥هـ/١٨٨١-١٩٠٧م) في ضوء التقارير والوثائق العثمانية، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد ١٦، الرياض، ٢٠٠٧م، ص١٧٠-١٧٧.

[2]- يوسف: عماد عبد العزيز، الحجاز في العهد العثماني (١٨٧٦- ١٩١٨) دار الوراق-بيروت، ٢٠١٤م، ص١٠٠-١٠١/ الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٨٣-٩٠.

[3]-الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢٦٦.

انعكسب بالسلب على الأوضاع الصحية في الحجاز فقد ذكر اللواء "**إبراهيم رفعت باشا**" في كتابه: " مرأة الحرمين" إلى أنه حينما قدم إلى الحجاز وجد إهمالاً كبيراً في المستشفى بمكة المكرمة حيث كان يمتلىء بالقذرات والروائح الكريهة وقال إن بعض من المرضي كانوا مفترشين الأرض لعدم وجود أماكن مهيئة لاستشفائهم ([1]).

ويُعلل هنا الرحالة الروسي "**دولتشين**" ما ذكره آنفاً من مخافته من إنتشار الأمراض والأوبئة حيث ذكر أنه والحال كذلك قد قابل طبيباً يمر بين الحفر التي كان يتم ذبح الذبائح في طرفها من قبل الحجاج وأنه–اي ذلك الطبيب– قد أمر بدفن تلك البقايا الحيوانيه من الذبائح وإحالة المخالفين إلى المحاكمات حيث قال: **(وجميع الأماكن قرب الأسيجة كانت مغطاة بالبراز البشري؛ وفي كل مكان ، نفايات مختلفة وزبالة رهيبة ؛وفي كل مكان رائحة نتنة لا تطاق ، وبخاصة في جوار المراحيض العامة التي لم يطمروها بأي شيء. وقرب الحفر ، ما وراء منى، آلاف من المواشي المذبوحة التي قد بدأت تتفسخ وتتعفن ؛وقرب تلك الحفر التي قد امتلأت وطمروها ، تتناثر مختلف البقايا من الجيف. تلاقيت مع طبيب من الأطباء طاف راكبا في مكان ذبح الأضاحي وأمر بطمر الحفر. وقد أفادني أن احد الحجاج احيل إلى المحاكمة لأنه ذبح الخروف قرب خيمته)** ([2]).

وأشار "**دولتشين**" أيضاً إلى ظاهره رأها غير صحية وهي بيوت الخلاء العامة والتي كانت رائحتها كريهة جداً وربما خشى من تاثيرها على الحجاج خاصة كبار السن ممن يعانون من أمراض الجهاز التنفسي حيث ذكر ما نصه: **(ولكن بيوت الخلاء العامة تطلق رائحة كريهة رهيبة ، فلا يمكن المرور بقربها دون سد الأنف)** ([3]).

ولم ينس "**دولتشين**" الحديث عن بيوت الخلاء في منازل المدينة المنورة أيضاً حيث وصفها بقوله: **(تتصف البيوت ببالغ النظافة والترتيب ، ولكن بيوت الخلاء كما في مكة ؛ وفي بعض البيوت تفوح رائحة كريهة في الطوابق السفلى ، وبخاصة إذا كان عدد السكان كبيرا. وتنظيف البالوعات يجري**

---

[1]–باشا: ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية، دار الكتب المصرية–القاهرة، ١٩٢٥م، ج١، ص١٨٤–١٨٥.

[2]–وربما في ذلك إشارة إلى وجود نظام قانوني يعاقب بموجبه من يذبح خارج الأماكن المخصصة للذبح في تلك الفترة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، انظر: (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المرجع السابق، ص٢٧٧).

[3]–الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص١٩٨.

على الأغلب مرة واحدة في السنة، وبعض أصحاب البيوت لا يقومون بهذه العملية إلا مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث. ومحتوى البالوعة ينقلونه إلى خارج المدينة) ([1]).

وبالرغم من محاولات الدولة العثمانية الاهتمام بالجوانب الصحية في الحجاز في تلك الفترة إلا أنه ربما لكثرة عدد الحجاج مع تلك الاجواء الحارة وقلة الامكانيات الصحية والاقتصادية في ولاية الحجاز ربما كان ذلك من الاسباب الرئيسة في انتشار تلك الأمراض وكذلك لا يمكن استبعاد العامل الذي ذكرناه سابقاً والمتعلق برغبة الامبراطورية البريطانية وروسيا القيصرية معاً في استغلال تلك الأوضاع الصحية أثناء موسم الحج كزريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية في الحجاز وتأليب العرب والمسلمين عليها وهو ما نجحت فيه فيما بعد خاصة وانها قد دخلت بعد ذلك الحرب العالمية الأولى وحاربت ضد الدولة العثمانية إلى جانب روسيا القيصرية ([2]).

وأشارت بعض التقارير الطبيه في مطلع القرن العشرين وبالتحديد موسم حج ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م أن مرض الكوليرا، والطاعون قد انتشرا مرة أخرى في مكة المكرمة والمدينة المنورة في موسم الحج في ذلك العام، ويتضح أن الوضع الصحي في تلك الفترة كان متراجعاً بشكل كبير وأنه قبل أكثر من ثمانية وعشرين عاماً كانت قد تعرضت الحجاز لوباء الكوليرا والطاعون كما أشار الرحالة "**دولتشين**" إلى ذلك من قبل-كما أشرنا-، وعليه كان ينبغي لزاماً على السلطات العثمانية تلافي تلك المخاطرة وتجنب أخطاء الماضي ومحاولة احتواء هذا المرض وغيره من الأوبئة المشار إليها سلفاً خاصة بعد أن أوضح ذلك التقرير أن هذا الوباء قد أهلك عددا ليس بالقليل من الحجاج حيث أصابت الكوليرا نحو ٢٨ حاجا في مكة، توفي منهم ٢٠ حاجا، وأصيب بها ايضاً عدد ٤٥ حاجاً مصرياً توفي منهم نحو ٣٢٣ حاجا([3]).

---

[1]-الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص٢١١.

[2]- محمد: أحمد صالح علي، الحروب العثمانية -الروسية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية العرب العالمية الأولى (١٩١٨-١٨٠٦م)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية-جامعة بابل-بغداد، ٢٠١٩م، العدد ٤٢، ص٤٨٠-٤٨٦/ أوليج: رد كيج، وصف الخليج العربي للرحالة والبحارة الروس ١٨٩٧-١٩٠٦م، مركز عيسى الثقافي-مركز الوثائق التاريخية، مج ٢٨، العدد ٥٥، ٢٠٠٩م، وثائق رقم ١٥٦-١٥٨.

[3]- العارف: يوسف بن حسن، الأوضاع الصحية في الحجاز في أواخر العهد العثماني قرأه في كتاب (الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥- ١٩١٤)، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ٦، الرياض، ٢٠٠٣م، ص٢٢١-٢٢٢.

ولم يكن الرحالة الروسي العقيد "**دولتشين**" هو الرحالة الروسي الوحيد الذي تحدث عن أوضاع الحجاز الصحية في موسم الحج فلدينا الجغرافي والرحالة الروسي- كما أشرنا سلفا- "**بي سنتين**" والذي زار الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حيث سجل بدوره أوضاع الحجاز الصحية في ظل سلطة الدولة العثمانية أثناء موسم الحج وذكر وجود مستشفى مكون من ثلاثة طوابق في المدينة المنورة وبها طبيب وصيدلي ([1]).

وقد وصف "**بي سنتين**" أحوال الحجاز بدقة كبيرة ضمن كتابه المسمى " **الشرق-بلدان الصليب والهلال**" والذي نشره في عام ١٨٩٢م وقد جاء في ٥٠٠ صفحة كان نصيب الحجاز منه نحو ٣٣ صفحه ونحو ١٨من النقوش، وانصب كتاب "**بي سنتين**" في اغلبه على المواقع الجغرافية في جزيرة العرب بحكم تخصصه كجغرافي وعدد للقارئ الروسي مبادئ الإسلام وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر في الكتاب ايضاً مقتطفات من الحجاج الروس الذين زاروا البقاع المقدسة في الحجاز، وكان من بينهم كما سجل:

١- "**الحاج اسماعيل**" من كورغالا الذي حج في عام ١٧٥١م.

٢- "**الحاج سفر محمد أمين**" من قازان والذي حج في عام١٧٨٣م ([2]).

وقد ذكر الرحالة الروسي "**بي سنتين**" في كتابه المذكور أن الماء في مكة المكرمة كان جيدا حيث أشار إلى انه يأتي من "**عين زبيدة**" الواقع أسفل جبل الكر ([3]).

وذكر الرحالة والجغرافي الروسي "**بي سنتين**" الطائف فيما ذكر من مدن الحجاز حيث قال عنها: **(يصطاف المكيون في الطائف ٥٠٠٠ نسمة مع حرس مكون من ٤٠٠ جندي، ويحيط بالمدينة**

---

[1]-الجاسم: العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر الميلادي، المرجع السابق، ص٤٣٧/ دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص٢٣.

[2]- لبيدنسكايا: تي إن، شبه الجزيرة العربية كما وصفها بي سنتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة الوثيقة، مركز عيسى الثقافي-مركز الوثائق التاريخية، مج ٢٦، العدد ٥٢، ٢٠٠٧م، ص٣٢-٥٣.

[3]-هي الأميرة زبيدة بنت جعفر العباسية القرشية (١٤٩-٢١٦هـ/ ٧٦٦-٨٣١ م)، زوجة الخليفة هارون الرشيد، وأم ولده الأمين والتي شيدت بطول طريق الحج من العراق وحتى مكة المكرمة آبار لسقيا الحجاج تُعرف تاريخياً باسم وقف عين زبيدة وسميت تلك العين باسمها. للمزيد؛ انظر: (شاكر: محمود، التاريخ الاسلامي، المرجع السابق، مج ٥، الدولة العباسية، ج١، ص١٤٣-١٦٤).

سور متين وبه ثلاثة ابواب تفتح في ساعات النهار فقط، وتمتد حولها البساتين على امتداد البصر وتنقل الخضروات والعنب والبرتقال والخوخ والمشمش والرومان وغيرها من هنا إلى مكة) ([1]).

وقد أشارت العديد من التقارير الطبية في مطلع القرن التاسع عشر إلى عدم أهلية وكفاءة الانظمة الصحية المعمول بها من قبل الدولة العثمانية حيث كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية متردية بسبب حروب الدولة العثمانية مع روسيا القصرية وتغيير موازين القوي مع بدايات القرن التاسع عشر لصالح روسيا وصولاً إلى بدايات القرن العشرين حيث انهارت الإمبراطورية العثمانية وللأبد ([2]).

ولعل ابرز ما قامت به الدولة العثمانية لتلافي الأمراض والأوبئة التي يتوقع تفشيها في موسم الحج من كل عام هو قيامها بتأسيس مجلس صحة ولاية الحجاز في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي والذي كان من أهم واجباته الإشراف على الأوضاع الصحية في الحجاز وكذا اتخاذ التدابير المناسبة للوقاية من الأمراض والحد من الأوبئة بغرض القضاء عليها تماماً وتأمين موسم الحج منها، وبذلك اعتبرت الدولة العثمانية أنه وبقيامها بوضع أنظمة صحية وقوانين للحجر الصحي ومكافحة الأمراض وبأنشاء هذا المجلس قد حمت نفسها من التدخلات الأجنبية الخارجية في شؤون الحج الذي هو من بين أهم مسؤولياتها العالمية ودأبت كل من روسيا وبريطانيا بالتنديد بالدولة العثمانية في كل محفل

واتهامها الدائم بالمسؤولية على أنتشار الأمراض والأوبئة في الحجاز واتخاذ ذلك زريعة ودعاية مغرضة لتشويه الدولة العثمانية وإعلان تقصيرها الكبير في شؤون الحجاج المسلمين المنتشرين في كافة أنحاء العالم حينذاك ([3]).

ولم تمنع كل تلك التدابير من انتشار الأمراض والأوبئة أثناء موسم الحج في الحجاز حيث القت الدول الأجنبية باللوم كل اللوم على السلطان العثماني "**عبد الحميد الثاني**" (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م-

[1]- لبيدنسكايا: تي إن، شبه الجزيرة العربية كما وصفها بي سنتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، المرجع السابق، ص٣٢-٥٣.

[2]-محمد: أحمد صالح علي، الحروب العثمانية-الروسية، المرجع السابق، ص٤٨٠-٤٨٦/ باشا: ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين، المصدر السابق، ص١٨٤-١٨٥.

[3]-المومني: نضال داوود، مصر والأوضاع الصحية في الحجاز خلال موسم الحج أواخر العهد العثماني_١٩٠٠- ١٩١٨م)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ١٠١-١٠٢، جامعة دمشق، ٢٠٠٨م، ص٢١١-٢٢٢.

١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) مما أدى إلى ضغوط سياسية كبيرة أدت في نهاية المطاف مع عوامل أخرى إلى خلعه عن السلطنة بعد أن توفي الكثير من الحجاج بوباء الكوليرا والطاعون في موسم حج عام ١٣١١هـ/١٨٩٤م ([1]).

وعلى الرغم من تكرار انتشار الأوبئة والأمراض وتردي الوضع الصحي فيما تلا عهد السلطان "**عبد الحميد الثاني**" الذي استمر زهاء ثلاثة وثلاثين عاما فقد أستمر ذلك الاهمال بنفس الوتيرة حيث سُجل موت الكثير من الحجاج كما أشرنا في مواسم حج الاعوام التالية أيضاً إلا أنها كانت أقل خطراً من ذي قبل وظلت حتى منتصف القرن العشرين تسير حالات الوفيات بالأمراض العادية ولأسباب لا تتعلق بانتشار الأوبئة الفتاكة ([2]).

وقد أوفدت فرنسا بالتوافق مع الدولة العثماني طبيباً متخصصاً في أسباب انتشار الأمراض والأوبئة إلى الحجاز للوقوف على أسباب تفشي مرض الكوليرا وغيره من الأمراض الفتاكة في موسم الحج وهو الطبيب الفرنسي "**أدريان بروست**" والذي كان متخصصاً في أمراض الصحة العامة وقد ذكر في تفاصيل تقريره الطبي أن اللجنة الصحية قد توصلت إلى أسباب انتشار الأمراض الفتاكة والأوبئة في موسم الحج بأرض الحجاز حيث أرجعت ذلك لعدم جودة ونظافة مياه الشرب والتي اعتبرها السبب المباشر والرئيسي لانتشار الأمراض وخاصة وباء الملاريا ([3]).

وقدم الطبيب المصري "**عبد الحميد الشافعي**" تقريراً حول أوضاع الحجاج الصحية للسلطان العثماني في خلال موسم حج عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م والذي أشار فيه إلى أن الأوضاع الصحية في الحجاز أثناء موسم الحج كانت متردية جداً حيث ذكر أن إجمالي عدد الحجاج الذين جاءوا لأداء فريضة الحج آنذاك بلغ ٩٢٦٣٥ حاجاً وقد عاد إلى أوطانهم منهم عدد ٤٥٠٨٥ حاجاً فقط، وقد توجه

---

[1]-كانت جمعية الاتحاد والترقي قد أعلنت عزل السلطان **عبد الحميد الثاني**، وتم نقله مع أسرته إلى سلانيك حتى وفاته عام ١٣٣٦م/١٩١٨م بعد عدة ثورات وانكسارات عسكرية وسياسية مُنيت بها السلطنة العثمانية في ذلك الوقت. انظر: (شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ج٨، ص١٩٧-٢٠٧).

[2]-المومني: نضال داوود، مصر والأوضاع الصحية في الحجاز خلال موسم الحج، المرجع السابق، ص٢١١-٢٢٢.

[3]-صابان: سهيل، رحلة بروست إلى الحجاز عام (١٣١١ هـ/١٨٩٣م)، مجلة الفيصل، العدد ٢٧٠، دار الفصل الثقافية-الرياض، ١٩٩٩م، ص١٢٦-١٢٧.

منهم إلى المدينة المنورة عن طريق ينبع عدد ١٢٢٦٨حاجاً، بينما وصل من ينبع إلى المدينة عدد ٩٩٣٢ حاجاً فقط ([1]).

ويشير الطبيب "**الشافعي**" في تقريره الصحي إلى أن إجمالي عدد الوفيات في ذلك الموسم بفعل انتشار الأوبئة التي تفشت في الحجاز قد بلغ عدد ٤٦٥ حالة وفاه من بين الحجاج، بينما كان العدد الاجمالي ممن توفوا بسبب أمراض غير وبائية قد بلغ ٨٥ حاجاً فقط في ذلك الموسم ([2]).

المبحث الثاني: مشاهدات الرحالة العرب والمستشرقين للأوضاع الصحية في الحجاز:

كان للرحالة العرب والمستشرقون دور بارز في تسجيل مشاهداتهم حول الأوضاع الصحية في الحجاز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين التاسع عشر والعشرين الميلاديين حيث جاءت تقاريرهم لترسم صوره واضحة حول الحالة الصحية في الحجاز أثناء موسم الحج الأكبر.

وغني عن البيان أن مقارنة المشاهدات بين الرحالة الروس وغيرهم من الرحالة من عرب ومستشرقين والذين كانوا قد جاءوا إلى الحجاز في نفس الفترة التاريخية -كما أشرنا سلفاً- من شأنه أن يمحص الكثير من المشاهدات، ويوثق تاريخياً لحقيقة الوضع الصحي في الحجاز بدون مبالغات من طرف دون الأخر خاصة وأن الحروب العديدة التي دارت رحاها بين روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية منذ القرن التاسع عشر، وحتى بدايات القرن العشرين جعلت الكثير من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين يتحدثون عن مبالغات ربما ترقي إلى افتراءات من قبل الرحالة الروس في وصف تردي الحالة الصحية في الحجاز في تلك الفترة لإضعاف العدو التقليدي لروسيا القيصرية وجني مكاسب سياسية على الأرض على حساب ضُعف الموقف العثماني واهتزازه على مسرح السياسة الدولية آنذاك ([3]).

---

[1]- صابان: سهيل، الأمراض والوفيات في الحجاز في، المرجع السابق، ص١٧٠-١٧٧.

[2]- صابان: سهيل، الأمراض والوفيات في الحجاز، المرجع السابق، ص١٧٩-١٨٧.

[3]- بلغت الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية مع روسيا القيصرية منذ عهد بطرس الكبير (١٧٢٥م)، وخلفائه من بعده عشر حروب، وكانت تحت شعار "الوصول للمياه الدافئة" في الخليج العربي، مما يشير بمدى اهتمام الجانب الروسي بالمنطقة منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر، انظر: (الفالح: الخليج والجزيرة العربية في المصادر الروسية، المرجع السابق، ص٢٢-٢٣/ المومني: نضال داوود، مصر والأوضاع الصحية في الحجاز، المرجع السابق، ص٢١١-٢٢٢).

ولا شك في أن بريطانيا العظمى كانت دوماً تتوجس من نفوذ روسيا القيصرية في الشرق الأوسط حيث المياه الدافئة ولذا حرصت الإمبراطورية البريطانية كل الحرص على تقوية مستعمراتها في الهند وشمال افريقيا حيث عقدت تحالفات عربية لمواجهة الدولة العثمانية وروسيا القيصرية في آن واحد، فواصلت خططها الاستعمارية عن طريق إرسال الرحالة والمستشرقين لاستكشاف كافة مناحي الحياة في تلك المناطق ذات الأهمية الجيوسياسية والثقافية بوصفها مقر الديانات السماوية الثلاث وممر التجارة العالمية.

ولعل من أشهر الرحالة الأوربيين الذين زاروا الحجاز وسجلوا مشاهداتهم عن اهم الأوضاع السياسية والدينية والاقتصادية في الحجاز كان الرحالة "**جون لويس بوركهارت**" ([1])، والذي يُعد من بين أقدم الرحالة الأجانب الذي وقف على تفاصيل تاريخ الحجاز منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث زار الحجاز في العام ١٢٢٩هـ/١٨١٤م، ووصف لنا تفاصيل ترتبط بالأوضاع الصحية فيها في تلك الفترة.

وقد وصف "**بوركهارت**" مشاهداته عن مكة المكرمة بتفاصيلها المختلفة، وقد جاء في معرض حديثه عن مناخ مكة ورياحها الموسمية ذكره ارتفاع درجات الحرارة الشديد وعدم سقوط الأمطار إلا نادراً في شهر فبراير وتكون حين سقوطها غزيرة لدرجة كبيرة ([2]).

وسجل ضمن ما سجل من مشاهداته حول الأوضاع الصحية في مكة المكرمة التالي نصه: **(الأمراض المنتشرة في المدينتين "مكة والمدينة" تكاد تكون واحدة، ويدخل ساحل الحجاز ضمن**

---

[1]–هو رحالة سويسري من مدينة بازل توفي ودفن في القاهرة عام ١٨١٥م، تلقى تعليمه في لندن وقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقه وكان –كما زعم– أنه ارتد عن دينه ودخل الإسلام وانطلق من جدة إلى مكة حتى الطائف وسمى نفسه باسم: إبراهيم بن عبد الله، انتظر في مكة ليكون في استقبال الحجاج بعد أن تحسنت علاقته بمحمد على باشا وإلى مصر وقد أدى فريضة الحج في بداية شهر نوفمبر وديسمبر ثم غادر إلى سويسرا مع البعثة السويسرية للحج (السرياني: محمود، مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين ،دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة ،مجلة رسائل جغرافية – الكويت العدد ١٠٧، ص١٣–١٩).

[2]- بوركهارت: جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية، يتضمن تاريخ بلاد الحجاز المقدسة عند المسلمين، ترجمة صبري محمد حسن، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المركز القومي للترجمة– القاهرة ، ط١، ٢٠٠٨م،ج١، ص١٣٣–١٧١.

بلدان الشرق غير الصحية، تشيع في المدينتين الحُمى المتقطعة بكل اشكالها، كما تنتشر فيها الدوسنتاريا، والتي غالباً ما تنتهي بتورمات في البطن، وغالاً ما تفضي إلى الموت) ([1]).

وهو بذلك يتفق في شهادته مع الكثير مما شاهده الرحالة الروس والعرب من وجود أمراض الجهاز الهضمي وتفشيها في مكة المكرمة أثناء موسم الحج الاكبر. وفي معرض حديثه عن مدينة جدة فقد قال: **(حمى الالتهابات بكل أنواعها تعد اشياء نادرة الحدوث في جدة عنها في مكة، لكن جدة يشيع فيها نوع من حُمى العفن التي قد تبدو مُعدية، على حد قول السكان، وقيل أن خمسين شخصاً ماتوا متأثرين بهذه الحُمى في يوم واحد وفي الاعوام التالية ٧٤٩، ٧٩٣ ،٨٣٩ نقل أشخاص أخرون العدوى إلى المدينة وفي العام التالي لهذه العدوى توفي ألف شخص بفعل هذه الحُمى)** ([2]).

وأضاف لنا "**بوركهارت**" في مشاهداته أنه بجانب مرض الحمى –الذي اكتوى هو بناره ايضاً– يوجد مرض آخر أخطر وأكثر فتكاً بصحة الناس وقد انتشر–وفق شهادته– في عام ١٨١٥م في مكة والمدينة على حد سواء وهو "**مرض الطاعون**" حيث قضى على آلاف الأرواح كما ذكر ما نصه: **(انتشر الطاعون انتشارا واسعا وعنيفاً الأمر الذي جعل مكة والمدينة تخسران سدس سكانها)** ([3]).

وعاد وتحدث عن الرمد وذكر أنه نادر الحدوث في الحجاز إلا أنه ذكر وجود مرض الفيل والدودة الغينية وحصوة المثانة والتقرحات في القدمين والتي كانت منتشرة في مكة المكرمة حيث قال: **(الرمد شيء نادر الحدوث في الحجاز، وأنا لم أر سوى حالة واحدة لشخص أبرص بين البدو، في بلدة الطائف... يُقال أيضاً أن، حصوة المثانة من الأمور الشائعة في مكة، وربما كان ذلك ناتجاً عن نوعية المياه. بلغتي أن الجراحين الوحيدين الذين يعرفون كيف يجرون عملية استخراج الحصوة من المثانة هم بدو قبيلة بني سعد الذين يعيشون على بعد ثلاثين ميلاً من بلدة الطائف..... ومن الشائع جدا أن ترى تقرحات على أرجل الناس وهم سائرون في الشوارع)** ([4]).

أما عن الحالة الصحية في المدينة المنورة فقد سجل أن درجة الحرارة فيها هي الأشد من أي مكان اخر من الحجاز وأن مرض الحمى هو الأوسع انتشاراً في المدينة، وذكر أن مرض الدوسنتاريا هو نادر الحدوث، وذكر عن الحمى في المدينة التالي: **(الحُمى بأشكالها المختلفة هي الاكثر شيوعا**

---

[1]– بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٤

[2]–بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٥.

[3]–بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٦.

[4]–بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٦.

هنا، الامر الذي يجعل السواد الاعظم من أهل المدينة معرضين للإصابة بها، ولا مفر من إصابة الاغراب بها إذا ما أقاموا في المدينة المنورة فترة طويلة، وبخاصة في فصل الربيع) ([1]).

وكان من بين أهم هؤلاء الرحالة الأوربيين الرحالة الإنجليزي "**بيرتون**" الذي قام بزيارة الحجاز عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م وسجل تفاصيل عن الذبائح في الحرم المكي حيث قال: (.. **فبالإضافة إلى الحرارة وجدنا حشوداً من الزباب، كما أن التربة المشبعة بدماء الأضحيات بدأت تعيق الجو بروائح نته وراحت الحدآت والنسور وحدها تحلق في الجو..)**([2]).

وقد أشار "**بيرتون**" في مشاهداته أن الحجاج كانوا يذبحوا أضحيتاهم في منى بشكل عشوائي غير منظم مما أدى في النهاية إلى تراكم بقايا الحيوانات وصارت الروائح النتنه في كل مكان مما ينذر بكارثة صحية وهو هنا يتطابق مع الكثير مما جاء في مشاهدات الرحالة الروس خاصة رحلة العقيد الروسي الحاج "**عبد العزيز دولتشين**" حيث أضاف "**بيرتون**" قائلاً: **(وقد كنت تواقاً لمغادرة هذا الجو الموبوء في منى، لقد أنتنت الأرض في منى إنتانا بمعنى الكلمة، ولا غرو فقد تم ذبح خمس آلاف أو ست آلاف أضحية... وكان يمكن تجنب هذا الوباء ببناء مسلخ او مذبح أو حتى حفر خنادق طويلة وإصدار أوامر للحجاج بالذبح في الأماكن المخصصة وإلا تعرضوا للعقاب)** ([3]).

ولدينا من الرحالة العرب؛ الرحالة التونسي "**محمد بن عثمان السنوسي**" الذي زار الحجاز في عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، وذكر ضمن مشاهداته أسباب واضحة –من وجهة نظره– لظهور الأمراض على الحجاج أثناء موسم الحج وأرجع ذلك إلى التلوث البيئي الذي يحدث من مخلفات الذبائح التي تملا البقاع المقدسة في مكة المكرمة منذ يوم العيد وطوال أيام التشريق حيث قال: **(وهنا تحققت أسباب المرض على الحجاج ، وذلك أن أغلب الحجاج يتعود في مدة سفره للحج على أكل المجففات من الخبز وغيره فتحصل لأبدانهم رياضة مع ضعف تفضي إليه المجففات وحالة السفر، فإذا كان يوم العيد بمنى ذبحوا ضحاياهم وتناولوا لحومها بشره زائد ، وربما تساهلوا في شأن طبخها فتأثر فيهم آثاراً غير ملائمة للصحة. وقد شاهدت من ذلك كثير زيادة على كون جميع تلك الذبائح يحري**

---

[1]–بوركهارت: ترحال في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ج١، ص١٨٥.

[2]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة، المصدر السابق، ص٥٦٥.

٣–الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٢، ص٥٦٧.

دمها وتلقى أقذارها وفضلاتها على صعيد واحد بيم منازل النازلين مع شدة حر المكان، وبذلك يحصا تعفن في الهواء واضح الضرر على الوافدين) ([1]).

ويحدثنا الضابط والجغرافي المصري "**محمد صادق باشا**" (١٣٢٠-١٢٣٨هـ) والذي شغل منصب "**أمين صرة المحمل المصري**" سنتي ١٨٨٠- ١٨٨٥م وكتب مؤلفاً عن رحلاته للحج ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م والمعروفة باسم "**رحلة كوكب الحج**" قائلاً: **(وصارت لحوم الآضاحي ملقاة على الطرق مع اجتهاد مأموري الصحة في منع ذلك وطبعها للمنشورات وأعدادها عربانات (عربات) لحمل القذرات أولاً بأول لكن لم يتيسر ذلك)** ([2]).

ولعل الضابط المصري "**محمد صادق باشا**" أشار فيما أشار هنا إلى ذات الأسباب التي تجعل من مكة المكرمة أثناء موسم الحج مكاناً غير ملائم لصحة الحجاج نتيجة مباشرة لذبح الأضحيات في أماكن غير مجهزة سلفاً وتفاعل تلك البقايا الحيوانية مع أرتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف مما يؤدي حتماً لانتشار الأمراض وبالتالي كثرة المرضى وحالات الوفاة والتي سجلت ارتفاعات ملحوظة في نهاية القرن التاسع عشر -وكما أشرنا سلفاً-وقد أشار ايضاً إلى ذلك العديد من الرحالة الروس وغيرهم كما سلف القول.

وقد كان المستشرق الهولندي "**سنوك هورخورنية**" من بين أهم الرحالة الاوربيين الذين زاروا الحجاز وكتبوا عن تاريخه وحضارته، حيث زار الحجاز في عام ١٨٨٤- ١٨٨٥م وسجل مشاهداته التاريخية والدينية والسياسية بدقة شديدة وتفصيل كبير ([3]).

وذكر "**هورخورنية**" في كتابه أنه قد تفشي وباء كبير في مكة المكرمة وهو "**وباء الكوليرا**" والذي أودي بحياة الكثير من سكان مكة المكرمة وكان من بينهم الباشا التركي المُكلف من قبل جناب "**محمد علي باشا**"(١٢١٩/١٢٦٤هـ-١٨٠٥/١٨٤٨م) والذي كان يدعى "**عابدين بك**" وقد تولى من بعده نائبه المعروف باسم "**خورشيد بك**" مكة وذلك في عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م ([4]). وقد أضاف أيضاً؛ نقلاً

---

[1] -الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٢، ص٦٠٧-٦٠٨.

[2] -الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٢، ص٦٤٣.

[3] -هورخورنيه: سنوك ،ك.، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ،ترجمة: علي عودة الشيوخ، الرياض، ١٩٩٩م، ج١، ص٣٠٧.

[4] -هورخورنيه: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، المصدر السابق، ص٢٧٩.

عن: **(الدحلان-أمراء البلد الحرام-)** أن الناس قد عانوا معاناة شديدة وهلك الكثير منهم وامتلأت القبور، واستمر ذلك الوباء على أشده إلى العشرين من شهر ذو الحجة ([1]).

وقد جاءت مشاهدات الرحالة المغربي" **أحمد بن محمد السبعي الأدريسي**" في خلال موسم الحج عام ١٣١٠ه/ ١٨٩٢م مُعبرة عن الحالة الصحية في أوائل القرن الثالث عشر الهجري حيث ذكر مدى مرضه الشديد في رحلته إلى أرض الحجاز وأنه وزملاؤه قد عجزوا عن أداء الصلاة من شدة المرض قائلاً: **(..ووقع لي ضعف في القلب ووهن في الجسد وكثرة شرب الماء لفرط الحرارة... فعجزت عن الصلاة وقد مضت عليَّ أيام فلا أتناول في غير النادر فيها إلا الماء مع ما إنضاف إلى ذلك من السعال..)** ([2]).

وذكر أيضاً في مشاهداته أنه رأى بعض الحشرات والآفات الضارة مثل الجراد التي هددت الحجاج وتحدث عن تعرض الكثير من الحجاج لمرض الجدري وغيره من الأمراض الجلدية السارية التي أصابت العديد من الحجاج مما أدى إلى وفاة بعض رفاقه من الأمراض التي انتشرت في منى بسبب الذبائح التي نحرها الحجاج بغير نظام أو التزام بالقواعد الصحية التي كان يجب العمل بها من أجل الحفاظ على الوضع الصحي للحجيج ([3]).

ووصف تلك المشاهد المؤلمة وأنه كلما مشى في أنحاء مكة وشعابها وجد بها القبور الجديدة التي تم الدفن بها حديثاً لأناس قضوا للتو بقوله: **(ظهرت الرائحة من الأنعام المهداة من إبل وغيرها مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، وأجزائها ورؤوسها وأحشائها وجلودها، ولشدة الحرارة أسرع تغيرها ورائحتها، وكثر مع ذلك المرض والموت، فهرب الناس لمكة بمرضاهم في حر شديد وهلك كثير من أهلها وغيرهم)** ([4]).

وخلال رحلة اللواء "**ابراهيم رفعت باشا**" (١٢٧٣هـ/١٣٥٣هـ) التي زار فيها أرض الحجاز في عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م تحدث عن الأوضاع الصحية في الحجاز باقتضاب يوم العيد وأثناء أيام

---

[1] – هورخورنيه: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، المصدر السابق، ص٢٧٩، حاشية رقم (١).

[2]–. ساسيوي: الحاج، مشاهد من الحجاز أواخر القرن التاسع عشر من خلال رحلة أحمد بن الحسن السبعي (١٣١٠هـ/١٨٩٣م)، مجلة اسطورة للدراسات التاريخية-المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٦، الرباط، ٢٠١٧م، ص١٨٣-٢٠٠.

[3]– ساسيوي: مشاهد من الحجاز أواخر القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص١٩٠.

٤- ساسيوي: مشاهد من الحجاز أواخر القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص١٩٠-١٩١.

التشريق حيث قال: **(كان الحجاج في هذا العام يقاربون مائة وخمسين الفاً ، وكان اكثرهم ينحر الهدايا بمنى في ساعة واحدة من يوم النحر، وكان الناس في الاعوام الماضية ينحرون بالقرب من منازل الحجاج وفي ذلك تلويث الأماكن بالدماء وإثارة الروائح الكريهة التي تجعل الهواء موبوءاً والأجساد معتلة ، ولكن في هذا العام عملت حفر كثيرة بعيدة عن منازل الحجاج بألف متر أريقت فيها الدماء فلم يلوث الهواء بمنى ، ولم نشم الروائح البشعة، وكان الجو معتدلاً- ولكنه بالليل بارد- من أجل هذا كانت صحة الحجاج حسنة ولم يمرض أحد)** ([1]).

وكان الأستاذ " **محمد نجيب البتنوني**" (١٣٥٧هـ-١٩٣٨م) مصاحباً لجناب خديوي مصر "**عباس حلمي الثاني**" (١٢٩١هـ/١٨٧٤م-١٣٦٣هـ/١٩٤٤م)، ووصف في خلال رحلته مع الخديوي أوضاع الحج والحجاج وما شاهدة من حالة صحية في البقاع المقدسة حيث وصف مجموعة من الأمراض كانت شائعة بين الحجاج في ذلك الموسم وأهمها مرض الصدر وضربات الشمس في فترات الصيف وأمراض الجهاز الهضمي والدوسنتاريا وتحدث عن وباء الكوليرا ولكنه قال إنه في هذا العام لم تظهر في مكة وتحدث أيضا عن مرض الجدري وأنه يفتك بعدد اثنين في الألف من الحجاج كل عام وذكر أن مكة المكرمة يوجد بها مستشفى يعرف باسم "**شفخانة الخاصيكية**" وأن بها اربع صيدليات ([2]).

وسجل الأستاذ "**البتنوني**" في رحلته الكثير من المشاهدات كان فيها ما يتعلق بالأحوال الصحية في الحجاز على النحو التالي: **(.. وجو مكة كثير الحرارة قليل الأمطار، ومع هذا فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي تنزل بكثرة على الجبال المحيطة بالطائف، ولاتزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها. ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها ، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر، ويندر فيها التدرن الرؤي، وفي زمن الصيف تكثر الاحتقانان الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمي والدوسنتاريا خصوصاً بين الأطفال، ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه الغير ناضجة ، وفي زمن الحر تكثر فيهم الحميات لاسيما عند فساد مياه الشرب ، ويكثر فيهم مرض الجدري ويموت بسببه سنوياً أكثر من أثنين في الألف ، ومما يجدر بنا ذكره أن الكوليرا لم تظهر في مكة إلا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية أي في نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية، وفدت إليها من حجاج الهند ولاتزال تفد**

[1] -الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المرجع السابق، مج٢، ص٦٧٩-٦٨٠.

[2] -الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المرجع السابق، مج٢، ص٧٩٢-٧٩٣.

إليها معهم ، ولو كانت الحكومة تعتني بشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوة قبل دخولهم إلى جدة لأمكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الوبيل، والأوبئة الكثيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاً زريعاً كانت في سنة ١٨٩٠ ميلادية وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢) ([1]).

وذكر الأستاذ "**البتنوني**" فيما شاهد وجود مستشفى في مكة المكرمة مهيئة بالأطباء والتجهيزات الطبية المطلوبة حيث قال: (..**وفي مكة مستشفى معروف باسم شفخانة الخاصيكية وهو من خيرات خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني** ([2]) **وفيها أربع اجزاخانات: اثنان في طريق المسعى ، وواحدة في مصلحة الصحة بجياد ،والرابعة أشبه شيء بدكان عطارة بسيطة في الأدوية ما فسد غالبه وأصبح ضرره أكبر من نفعه ، وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة قليلة جداً، لأن ثقتهم بالطب القديم الذي مداره على الكي والفصد والحمية الشديدة وبعض أصناف العطارة الشرقية كالمر والصبر أكبر من ثقتهم بالطب الحديث)** ([3]).

ويشير حديث الأستاذ "**البتنوني**" عن تلك المستشفى التساؤلات حول الحالة الصحية في مكة فعلى الرغم من كثرة عدد سكان مكة المكرمة حيث أشار إليه بقوله إنهم قد بلغوا نحو مائه وخمسين ألفاً وأن أعداد الحجاج تتعاظم كل عام فإن مستشفى واحد لم يكن بحال من الأحوال يستوعب سكان مكة وحدها فما بالنا والحال هكذا وإذا أضيف إليهم أعداد أكبر من الحجاج في كل عام، فلا شك في أن ذلك كله كان بالضرورة يؤدي في النهاية إلى تردي الوضع الصحي في مكة المكرمة بشكل كبير وكان الحال نفسه في المدينة المنورة حيث لا يوجد سوى مستشفيي حكومي واحد أيضاً كما أشرنا سلفاً ([4]).

وقد سجل الأديب والمفكر اللبناني "**شكيب أرسلان**" (١٢٨٦ه/١٨٦٩م- ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م) في رحلته إلى أرض الحجاز مشاهداته في كتابه بعنوان: "**الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس**

---

[1]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية المصدر السابق، مج٢، ص٧٩٢-٧٩٣.

[2]-هو السلطان العثماني سليمان بن سليم من أشهر السلاطين العثمانيين واقواهم تولى السلطة نحو خمسين عاماً منذ عام ٩٢٤هـ وحتى ٩٧٤هـ وقد بلغت السلطنة العثمانية في عهده أوج عظمتها. انظر: (شاكر: محمود، التاريخ الاسلامي، المرجع السابق، ج٨، ص١٠٠-١٠٨).

[3]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٢، ص٧٩٢-٧٩٣.

[4]- يقارن الأوضاع الصحية في مكة المكرمة والمدينة المنورة في موسم الحج (المومني: نضال داوود، مصر والأوضاع الصحية في الحجاز خلال موسم الحج، المرجع السابق، ص٢١١-٢٢٢).

مطاف" فتحدث فيه عن أوضاع الحجاز أثناء فترة الحج وكان ذلك في العام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩هـ في عهد الملك المؤسس المغفور له بإذن الله "**عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود**" (١٢٩٢ه/١٨٧٦م-١٣٧٣هـ/١٩٥٣م) -طيب الله ثراه-.

وذكر فيما شاهده في مكة المكرمة أن درجات الحرارة كانت مرتفعة جداً وقد وصفها باسم " **الومد**" وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح أما النوع الثاني فهو السموم وعرفه بأنه هو الريح الحارة، واعتبر أن تلك الريح الحارة لها فوائد في انها تقتل الجراثيم الضارة فتجعل الحج خالي من الأمراض الفتاكة، وقد ذكر أن الإدارة الصحية في الحجاز في عهد المغفور له الملك "**عبد العزيز آل سعود**" كانت تداوم على اتخاذ تدابير صحية صارمة لمجابهة الأمراض والأوبئة في موسم الحج في الحجاز ([1]).

وردَ " **أرسلان**" الفضل في اتخاذ تلك التدابير الطبية الصارمة للتوجيهات العليا التي تلقاها الدكتور "**محمود حمدي**" من قبل القيادة السياسية بالبلاد حيث كُلف بالسهر الدائم على راحة الحجاج وتهيئة الظروف المناسبة لتطوير الأداء الطبي من عام لآخر لتلافي حدوث كافة أنواع الأمراض والأوبئة والتي كانت تنتشر من عام لأخر في موسم الحج، وقال ايضاً أن عربات الرش كانت تجوب الشوارع وترش في شوارع منى المطهرات من الاحماض المختلفة لتطهير الشوارع في مكة وشعابها للحفاظ على صحة الحجيج ([2]).

وزاد "**شكيب أرسلان**" في حديثه حول أهمية تأمين مصادر مياه صالحة للشرب وأوضح ضرورة أن تتعاون وتتكاتف حكومات العالم الاسلامي كله في النهوض بالإنشاءات الصحية وتأمين مصادر مياه جوفيه جيده وذلك عن طريق حفر ما اسماه "**آبار ارتوازية**" بطول صحراء عرفه لاستيعاب أعداد الحجاج التي تزيد من عام لأخر ([3]).

وأختتم "**شكيب أرسلان**" قوله عن شهادته بهذا الخصوص في الفقرة التالية: (.. **ولقد بلغني أن الملك ابن سعود -أيده الله ووفقه لكل خير-قد أذن لأناس من الهولنديين أن يجربوا حفر آبار**

[1]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج ٣، ص١٠٠١-١٠٠٢.

[2]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٣، ص١٠٠٢.

[3]-الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج ٣، ص١٠٠٥.

إرتوازية بين جدة ومكة، فشكرت لجلالته هذا الإذن، ورجوت أن تثمر هذه التجربة بما ينشط الملك على الامر بالحفر في مواضع كثيرة من هذه البلاد من جملتها عرفه ومزدلفة ومنى) ([1]).

وتوافقت رؤية "**أرسلان** "تلك في نهاية القرن الرابع عشر الهجري مطلع القرن العشرين الميلادي مع ما ذكره الرحالة الروسي العقيد "**دولتشين**" في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عن أهمية تأمين مياه للحجاج صالحة للشرب وغير ملوثة حتى تختفي الأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بآلاف الحجاج كل عام ([2]).

ومع بداية الربع الثالث من القرن الرابع عشر الهجري/ الموافق للربع الثاني من القرن العشرين وبالتحديد منذ تولي المغفور له بإذن الله تعالى الملك "**عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود**" (١٢٩٢ه/١٨٧٦م- ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م) -طيب الله ثراه-، فقد قامت الدولة السعودية بخطوات كبيرة في تحسين البيئة الصحية في الحجاز وذلك عن طريق اصلاح المرافق العامة والنهوض بها حيث تم توسعة وتجهيز مستشفى أجياد بكافة الوسائل الصحية، وأمر الملك أيضاً بأنشاء مستشفى في المدينة المنورة وتم انشاء نقاط إسعاف للحجاج في المشاعر المقدسة بمشعري منى ومزدلفة منذ العام ١٣٤٤ه/ ١٩٢٦م ([3]).

وقد سعى الملك "**عبد العزيز**" -طيب الله ثراه- بكل السبل إلى تطوير البنية الصحية بشكل كامل لذا فقد أمر بإنشاء مصلحة الصحة العامة في عام ١٣٤٣ه/١٩٢٥م وجعل مقرها في مكة المكرمة على أن تكون وفروعها في جدة والمدينة المنورة، وأمر ايضاً بأنشاء جمعية الإسعاف الصحي في عام ١٣٥٤ه/١٩٣٦م وكان مقرها في مكة المكرمة أيضاً، وأمر بإنشاء مراكز صحية على طريق الحج وتزويدها بالأطباء بمختلف التخصصات وبأحدث الاجهزة الطبية المختلفة، كما أمر بأنشاء محطات

---

[1] -الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، المصدر السابق، مج٣ ، ص١٠٠٦.

[2] -قارن ما ذكره العقيد الروسي في رحلته الشهيرة عن بعض آرائه في أسباب تفشي الأمراض والأوبئة بين الحجاج. انظر: (الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين، المصدر السابق، ص.٢١٢-٢١٣).

[3] -جميل: وليد بن محمد بن أحمد، مرافق الحج وخدماتها المدنية في عهد الملك عبد العزيز، مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية (١٢)، الرياض، ١٤١٩هـ، ص١٢٥-١٣٠.

لتحلية المياه لتوفير الماء الصحي والعمل على تقليل سعره والحد من الأمراض المرتبطة بالماء الملوث مثل الدوسنتاريا والكوليرا وغيرها من الأمراض السارية ([1]).

واستمر التطوير والتحديث الشامل والدائم في البنية الصحية وتقديم الخدمات الطبية في الحجاز بشكل خاص وفي المملكة العربية السعودة بشكل عام منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا.

الخاتمة:

بحمد الله وتوفيقه خلصنا في نهاية هذه الدراسة التي حملت عنوان: الأوضاع الصحية في الحجاز من خلال كتابات الرحالة الروس في القرن ١٣-١٤ه/١٩-٢٠م "مشاهدات مختارة" إلى عدد من **النتائج**، من أهمها:

١- كانت السياسة الروسية تجاه المدن المقدسة في الحجاز تتسم بالاهتمام والمتابعة الدائمة من قبل قياصرة روسيا طوال القرنين التاسع عشر واوائل القرن العشرين، رغبة منها في تعزيز نفوذها في الحجاز ومناكفة لكل من الأمبراطوريتين البريطانية والعثمانية، وتأكيداً للمسلمين من الرعايا الروس بأنها تهتم بالبقاع المقدسة في الحجاز.

٢- تُعد مشاهدات الرحالة الروس الذين زاروا الحجاز لأغراض سياسية أو دينية من بين أهم الوثائق التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها في وصف الأحوال الصحية طوال خضوع الحجاز للسيطرة العثمانية مقارنه بمصادر تاريخية اخرى وذلك منذ النصف الثاني للقرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي وحتى مطلع القرن العشرين.

٣- كانت البعثات الروسية الرسمية متمثلة في القناصل الروس أو المكلفين باسم الحكومة الروسية بمرافقة الحجاج الروس مكلفين ايضاً بتسجيل كافة التفاصيل عن مناحي الحياة بداء من وصف جغرافية الحجاز ووصف لمدنه ومعالمه وتفاصل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والصحية حتى أصبحت تلك المشاهدات وثائق تاريخية يمكن الاعتماد عليها في التأريخ للكثير من أحوال الحجاز في تلك الفترة.

---

[1]-للمزيد من التفاصيل حول النهضة الصحية الشاملة في المملكة منذ عهد المؤسس الملك عبد العزيز -طيب الله ثراه-؛ انظر: (جميل: وليد بن محمد بن أحمد، مرافق الحج وخدماتها المدنية في عهد الملك عبد العزيز، المرجع السابق، ص١٣٠-١٧٣).

٤- تميزت الاحوال الصحية في الحجاز خصوصاً في موسم الحج منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن العشرين الميلادي بالهشاشة وعدم الكفاءة والقدرة على احتواء الأمراض وسرعة انتشارها، وبالرغم من إتخاذ بعض التدابير الوقائية مثل إقامة مستشفى واستخدام عربات التطهير وتطهير صهاريج الماء وتجهيز حفر لدفن الذبائح وتخصيص مذابح معتمدة إلا أن الأمراض والأوبئة كانت تنتشر رغم كل ذلك وتقضي على الكثير من الحجاج كل عام.

٥- أن مشاهدات الرحالة الروس تطابقت مع غيرهم من المستشرقين الأوربيين والعرب من أن انتشار أمراض الحمى والطاعون والدوسنتاريا كانت هي أغلب الأمراض السارية بين الحجاج في تلك الفترة من كل عام، وربما يعود ذلك في جوهره إلى أرتفاع ملحوظ في درجات الحرارة في فصل الصيف وتلوث مياه الشرب، ونقص المستشفيات والصيدليات مع قلة الوعي الصحي بين الحجاج وكل ذلك كان سبباً مباشراً في انتشار الأمراض وكثرة عدد الوفيات.

أسأل الله بمنه وكرمه أن يعيننا على طاعته وحسن عبادته، وأن يجعل ما قدمناه خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر والوثائق:

١- الشريف: محمد بن حسن، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة، المجلد الثاني، دار الاندلس الخضراء، اربعة اجزاء- جدة،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢-الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل، مكتبة دار المعارف، الجزء الرابع، الطبعة الثانية- القاهرة، ١٣٨٧/ ١٩٦٧.

٣-المرجاني: شهاب الدين، مستفاد الاخبار في أحوال قازان وبلغار، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، قازان،١٨٨٥م، الجزء الثاني.

٤-الإمام أبي عيسى محمد الترمذي: مختصر الشمائل المحمدية، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف /المكتبة الاسلامية، الأردن ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م

٥-أوليج: رد كيج، وصف الخليج العربي للرحالة والبحارة الروس ١٨٩٧-١٩٠٦م، مركز عيسى الثقافي -مركز الوثائق التاريخية، مجلد ٢٨-العدد ٥٥، ٢٠٠٩، وثائق رقم ١٥٦-.١٥٨

٦-باشا: ابراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية، الجزء الاول، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٥م.

٧-بوركهارت: جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية-يتضمن تاريخ بلاد الحجاز المقدسة عند المسلمين، الجزء الأول، ترجمة صبري محمد حسن، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الاولى، ٢٠٠٨م.

٨-جورياتشكين: جينادي، شبه الجزيرة العربية كما رآها الروس من ١٨٠٠ إلى ١٩٥٠م- بعثه علمية لنيقولا بوجوبا فلينسكسي إلى الخليج العربي في سنه ١٩٠٢م، الوثيقة، مركز عيسى الثقافي مركز الوثائق التاريخية المجلد ١٦- العدد ٣٢، ١٩٩٧، ٨٣-.١٠٥

٩-لبيدنسكايا: تي إن، شبه الجزيرة العربية كما وصفها بي سنتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة الوثيقة، مركز عيسى الثقافي-مركز الوثائق التاريخية، مجلد ٢٦-العدد ٥٢، ٢٠٠٧م، ص٣٢-٥٣.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

١٠- الجاسم: نجاة عبد القادر، العثمانيون والحجاز في القرن التاسع عشر، مطبعة زات السلال، الكويت، .١٩٧٨

١١-الفالح: الخليج الجزيرة العربية في المصادر الروسية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

١٢-الفيتوري: عبد القادر، الحجامة، نشر إلكترونياً، ٢٠٠٤م.

١٣-الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشين إلى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩، الدار العربية للموسوعات- بيروت .٢٠٠٨

١٤-ب. م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة معروف خزنة دار، بغداد، ١٩٨١م.

١٥-بورشيفكايا، روسيا في الشرق الأوسط، الآثار- الآمال، دراسة صادره عن معهد واشنطن، مراجعة وترجمة مركز إدراك للدراسات والاستشارات،٢٠١٦م.

١٦- جميل: وليد بن محمد بن أحمد، مرافق الحج وخدماتها المدنية في عهد الملك عبد العزيز، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، سلسلة مشروع وزارة التعليم العالي لنشر ألف رسالة علمية (١٢)، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٧-شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الجزء الخامس، الطبعة السادسة، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٨-شاكر: محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الجزء الثامن، الطبعة الرابعة، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٩-عبد المؤمن: بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين-مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت، الجزء الثالث، الطبعة الاولى،١٤١٢هـ.

٢٠-زيدان: ناصر، دور روسيا في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٣ م.

٢١- هورخورنيه: سنوك ،ك.، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ،ترجمة :علي عودة الشيوخ، الجزء الأول، الرياض،١٤١٩ه.

٢٢-يوسف: عماد عبد العزيز، الحجاز في العهد العثماني (١٨٧٦- ١٩١٨) دار الوراق، بيروت، ٢٠١٤م.

ثالثاً: الدوريات والمجلات:

٢٣- السرياني: محمود، مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة، مجلة رسائل جغرافية -الكويت، العدد ١٠٧، ص١٣-١٩.

٢٤- الحمدي: صبري فالح، أخبار الحجاز في كتب الرحلات والوثائق الروسية المنشورة (١٨٧٩-١٩٠٧)، مجلة كلية الآداب، العدد ١٠٦، الجامعة المستنصرية-بغداد ،٢٠١٣م، ص٣١٧-.٣٣٨

٢٥- العارف: يوسف بن حسن، الأوضاع الصحية في الحجاز في أواخر العهد العثماني قرأه في كتاب (الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥- ١٩١٤)، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ٦ -الرياض، ٢٠٠٣م، ص ٢٢١-.٢٢٢

٢٦- الفالح: صبري الحمدي، موقف بريطانيا من النشاط الروسي في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر، مجلة كلية التربية الاساسية-بغداد، ٢٠٠٧م، العدد ٥٢، ص ١٣٩-١٥٤.

٢٧- الانصاري: عبد الرحمن الطيب، الرحالة الروس في تاريخ الجزيرة العربية وأرها: دراسة تقويمية، أدوماتو، العدد ١١(٢٠٠٥م) ص٥٣-٦٢.

٢٨-المومني: نضال داوود، مصر والأوضاع الصحية في الحجاز خلال موسم الحج أواخر العهد العثماني_١٩٠٠- ١٩١٨م)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ١٠١-١٠٢، جامعة دمشق ٢٠٠٨ م، ص ٢١١-٢٢٢.

٢٩-الزيدي: عباس ياسر، القوى الاستعمارية والخليج العربي ١٦٠٠-١٩١٤، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب-بغداد ١٩٨٠م، العدد ١٢ ص٤٣٢.

٣٠-جابر: أبو جابر، الرحالة الروس في البلدان العربية، مجله جامعة عدن، العدد ٤، صنعاء ٢٠٠٠م، ص٢٣-٦٠.

٣١-ساسيوي: الحاج، مشاهد من الحجاز أواخر القرن التاسع عشر من خلال رحلة أحمد بن الحسن السبعي ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، مجلة اسطورة للدراسات التاريخية-المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٦-الرباط ٢٠١٧م، ص١٨٣-٢٠٠.

٣٢-صابان: سهيل، الأمراض والوفيات في الحجاز في موسم الحج (١٢٩٨-١٣٢٥هـ/ ١٨٨١-١٩٠٧م) في ضوء التقارير والوثائق العثمانية، مجلة الجمعية التاريخية، العدد ١٦- الرياض،٢٠٠٧م، ص ١٧٠-١٧٧.

٣٣-صابان: سهيل، رحلة بروست إلى الحجاز عام (١٣١١ هـ/١٨٩٣م)، مجلة الفيصل، العدد ٢٧٠، دار الفصل الثقافية-الرياض ١٩٩٩م، ص١٢٦-١٢٧.

٣٤- محمد: أحمد صالح علي، الحروب العثمانية –الروسية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية العرب العالمية الأولى (١٩١٨-١٨٠٦م)، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والإنسانية جامعة بابل ٢٠١٩م، العدد ٤٢، ص ٤٨٠-٤٨٦.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

35-Al-Amr: Saleh Mohamed; Higaz Under Ottoman Rule 1869-1914, Ottoman Vali, the Sharif of Mecca and the Grouth of British Influence, Riyad University Publications, 1974.